العدد ٢٠٠١/٢٦

الأحد ١ تموز

القديسين الصانعَي العجائب الماقتَي

الفضة قزما وداميانوس

اللحن الثالث

إنجيل السَحَر الرابع

الرسالة

(١كور١٢:٢٧–٣١؛١٣:١–٨)

يا إخوةُ أنتم جسدُ المسيح وأعضاؤُهُ أفرادًا* وقد وضعَ الله في الكنيسةِ أُناسًا أولاً رُسُلاً ثانيًا أنبياءَ ثالثًا معلِّمينَ ثمَّ قوَّاتٍ ثمَّ مواهبَ شِفاءٍ فإغاثاتٍ فتدابيرَ فأنواعَ ألسنةٍ* أَلعلَّ الجميعَ رسلٌ. أَلعلَّ الجميعَ أنبياءٌ. أَلعلَّ الجميعَ مُعلِّمون. أَلعلَّ الجميعَ صانعو قوَّاتٍ* أَلعلَّ للجميعِ مواهبَ الشفاءِ. أَلعلَّ الجميعَ ينطِقونَ بالأَلسِنة. أَلعلَّ الجميعَ يُترجمون* ولكن تنافسوا في المواهِبِ الفُضلى وأنا أُريكم طريقًا أفضَل جدًا* ان كنتُ أنطقُ بألسِنَةِ الناسِ والملائكةِ ولم تكن فيَّ المحبَّةُ فإنَّما أنا نحاسٌ يَطِنُّ أو صِنجٌ يَرِنُّ* وإن كانت لي النبوَّةُ وكنتُ أعلَمُ جميعَ الأسرارِ والعلمَ كلَّهُ وإن كانَ لي الإيمانُ كلُّهُ حتَّى أنقلَ الجبالَ ولم تكن فيَّ المحبة فلستُ بِشيءٍ* وإنْ أطعَمتُ جميعَ أموالي وأسلمتُ جسَدي لأُحرَقَ ولم تكن فيَّ المحبَّةُ فلا أنتَفِعُ شيئًا* المحبَّةُ تتأَنَّى وترفُق. المحبَّةُ لا تحسُد. المحبَّةُ لا تتباهى ولا تنتفِخ* ولا

إنطاكية في القرون الأولى

في التاسع والعشرين من شهر حزيران تعيّد الكنيسة المقدّسة للرسولين بطرس وبولس شفيعي الكرسيّ الإنطاكي. في هذه المناسبة نتناول سريعًا بعض محطّات التاريخ الإنطاكي في القرون الأولى.

إن إشارة لوقا الإنجيلي في كتاب أعمال الرسل إلى أنّ تلاميذ يسوع دُعوا مسيحيينَ في إنطاكية أولاً (أعمال ١١:٢٦) تتجاوز في مدلولها المعطى الجغرافي المحض. لقد تأسّست مدينة إنطاكية عام ٢٩٣ ق.م. على يد سلوقس الأول نيكاتور أحد قادة جيش الإسكندر الكبير وخلفائه، وصارت المدينة، ضمن الإمبراطورية الرومانية وحتى سقوطها في النصف الأول من القرن السابع في يد المسلمين، عاصمة الشرق الفكرية وواحدًا من أهم مراكز العلم فيه. وكانت البيئة الإنطاكية مكانًا مميّزًا تختلط فيه ثقافات الشعوب التي سكنت تلك البقعة من العالم آنذاك، لا سيّما اليونان والسريان واليهود. وقد أنتج هذا المدى الإنطاكي معظم إرث العهد الجديد، إذ تُثبت الدراسات الحديثة أنّ إنجيل متى كُتب في سورية، والمعروف عن لوقا كاتب الإنجيل والأعمال أنّه كان إنطاكيًّا، وعن بولس الرسول أنّه اتّخذ من إنطاكية منطلقًا لرحلاته التبشيرية، وفيها تصدّى للتيار الذي كان يقول بضرورة ختان الأمم، أي تهويدهم، قبل صيرورتهم مسيحيين (غلا٢: ١١–١٥). بهذا المعنى، يدين كل مسيحي في العالم بهويّته، إذا جاز التعبير، لإنطاكية وذلك على مستويين: أولاً لأنّ أهم كتابات العهد الجديد انبثقت من مدى هذه المدينة الجغرافي والثقافي. وثانيًا لأنّ فيها تكرّست المسيحية كدعوةٍ عالمية لا تفترض الإنتماء اليهودي ولا تمرّ به.

ولقد بقيت إنطاكية في القرون الأولى للمسيحية مخلصةً لدعوتها هذه، إذ دفع المسيحيون من أهلها ضريبة الإخلاص للإنجيل، ولا سيّما في أزمنة الإضطهادات التي شنّتها الدولة الرومانية على المسيحيين لرفضهم تقديم الذبائح للإمبراطور وإطلاق لقب «رب» عليه. وقد اقتيد إغناطيوس، ثاني أساقفة إنطاكية، إلى رومية ليصير فريسةً لأنياب الوحوش المفترسة هناك. والمعروف عن هذا

الأسقف والشهيد العظيم أنه كتب، خلال سفره إلى رومية للإستشهاد، رسائل حثّ وتعزية إلى كنائس بعض المدن المهمّة التي مرّ فيها، ولا سيّما في آسية الصغرى، مثل ماغنيسيا وإزمير وفيلادلفيا. ونعرف من شهادة القديس يوحنا الذهبي الفم بطريرك القسطنطينية، والذي يتحدّر من إنطاكية، أنّ إكرام القديس الشهيد بابيلا كان منتشرًا في المدينة في زمنه. والمعروف أنّ هذا القديس استشهد خلال الإضطهاد الذي تعرّض له المسيحيون أيّام الإمبراطور ديكيوس (٢٤٩–٢٥١). كذلك، لا بد من ذكر القديس لوقيانوس الذي كان كاهنًا ومفسّرًا للكتب المقدّسة وله ينسب البعض تأسيس مدرسة في إنطاكية، وقد استشهد رميًا في البحر عام ٣١٢.

على المستوى اللاهوتي، عرفت إنطاكية في القرون الثلاثة الأولى مفكّرين لامعين. فإلى جانب إغناطيوس الذي تعتبر رسائله مرجعًا في اللاهوت والخبرة الروحية والحسّ الرعوي الأصيل، وهو أوّل من أطلق على الكنيسة صفة «جامعة» (كاثوليكية) تميّز أسقف إنطاكية ثيوفيلس (١٦٩–١٧٧)، وقد عرف بدفاعه عن المسيحيين أمام السلطات الرومانية، وكان أوّل معلّم من معلّمي الكنيسة يستخدم لفظة «ثالوث». وقد عُرفت إنطاكية، خصوصًا بعد انقضاء مرحلة الإضطهادات، بخطّها التفسيري الذي كان يركّز على أهميّة شرح الكتاب المقدّس حرفيًّا وتاريخيًّا، وذلك بعكس المذهب التفسيري الرمزي الذي شاع في الإسكندرية. ويردّ البعض المنهج التفسيري الإنطاكي إلى المدرسة التي يُقال إن الكاهن الشهيد لوقيانوس أسّسها. أمّا أبرز من اعتنق هذا الخطّ في شرح الكتاب المقدّس فكان القديس يوحنا الذهبي الفم الإنطاكي الأصل، وهو أهمّ خطباء الكنيسة على الإطلاق وأمير مفسّريها، يُضاف إليه معلّمه ديودوروس أسقف طرسوس وصديقه ثيودوروس أسقف مصيّصة، وقد حكمت الكنيسة عليهما في المجمع المسكوني الثالث لاعتبارهما مصدرًا لهرطقة نسطوريوس. وقد عُرفت كنيسة إنطاكية، بعد الإضطهادات، بأنّ كثيرًا من رجالاتها، مثل القديس يوحنا الذهبي الفم ونسطوريوس، اختيروا بطاركةً للقسطنطينية، كما اشتهرت كنيسة إنطاكية بأنّ أجزاء كبيرة من العالم المسيحي راحت، ابتداءً من القرن الرابع، تتبنّى تقاليدها وأشكالها الليتورجية. بهذا تكون كنيسة إنطاكية صانعة أكبر تراثٍ ليتورجي في العهود الأولى للمسيحيّة.

الإستعداد للمناولة

إن الهدف الأساسي من السماح بإقامة خدمة القداس الإلهي المسائي هو تمكين المؤمنين من الإشتراك في القدسات، أي تناول جسد الرب ودمه الكريمين. ولكي يؤتي هذا التدبير ثماره الروحية المرجوّة، لا بد من بعض الإرشادات العامة المتعلّقة بالإستعداد للمناولة لكي لا نكون نتناول دينونة لأنفسنا: «فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء. إذا أي من أكل هذا الخبز أو شرب كأس الرب بدون استحقاقٍ يكون مجرمًا في جسد الرب ودمه ولكن ليمتحن الإنسان نفسه وهكذا يأكل من الخبز ويشرب من الكأس لأن الذي يأكل ويشرب بدون استحقاق يأكل ويشرب دينونةً لنفسه غير مميِّز جسد الرب» (١كور ١١:٢٦–٢٩).

إذًا، المهم بالنسبة للرسول بولس أن يكون الإنسان مميِّزًا «جسد الرب». نحن نؤمن أن الخبز والخمر المُعطيين

تأتي قباحةً ولا تلتَمِسُ ما هو لها ولا تحتَدُّ ولا تَظُنُّ السوءَ* ولا تفرَحُ بالظلم بل تَفرَحُ بالحق* وتحتمل كُلَّ شيءٍ وتُصدِّقُ كُلَّ شيءٍ وترجو كُلَّ شيءٍ وتَصبُرُ على كُلِّ شيءٍ* المحبَّةُ لا تسقُطُ أبدًا.

الإنجيل

(متى ٨: ٥–١٣)

في ذلك الزمان دخلَ يسوعُ كَفَرْناحومَ فدنا إليهِ قائدُ مئَةٍ وطلَبَ إليهِ قائلاً يا ربُّ إنَّ فتايَ مُلقىً في البيت مُخلَّعًا يُعَذَّبُ بعذابٍ شديد* فقال لهُ يسوعُ أنا آتي وأشْفيه. فأجابَ قائدُ المئَةِ قائلاً يا ربُّ لستُ مستحِقًّا أن تدخُلَ تحتَ سقفي ولكنْ قُلْ كلمةً لا غيرُ فيبرأَ فتايَ* فإنّي أنا إنسانٌ تحتَ سلطان ولي جندٌ تحت يدي أقولُ لهذا اذهبْ فيذهَبُ وللآخر ائتِ فيأتي ولعَبْدي إعمَلْ هذا فيعْمَلُ* فلمَّا سمع يسوعُ تعجَّب وقال للذينَ يتبعونهُ الحقَّ أقولُ لكم إني لم أجِدْ إيمانًا بمقدارِ هذا ولا في إسرائيل* أقول لكم إنَّ كثيرين سيأتون من المشارقِ والمغاربِ ويتَّكِئون مع إبرهيمَ وإسحقَ ويعقوبَ في ملكوتِ السمواتِ* وأمَّا بنو الملكوتِ فيُلقَون في الظلمَةِ البرَّانيَّة. هناك يكونُ البكاءُ وصَريفُ الأسنان* ثمَّ قال يسوعُ لقائدِ المئةِ إذهَبْ ولْيكُنْ لك

كما آمنْتَ. فَشُفيَ فتاهُ في تلك الساعة.

في المحبة

مغبوط هو ذاك الإنسان المحب لله فإنه قد حوى في داخله الله. لأن الله محبة. من يثبت في المحبة فقد ثبت في الله والله فيه. من له المحبة يغلب بالله كل شيء لأن المحبة الكاملة تنفي المخافة إلى خارج. من عنده المحبة لا يرفض أحداً صغيرًا كان أو كبيرًا، شريفًا أو عاطلاً، فقيرًا أو موسرًا، بل يصير موطئًا للجميع، يحتمل العوارض كافة ويصبر على النوائب جميعها.

من فيه محبة لا يترفع على أحد ولا يتشامخ، ولا يغتاب أحدًا بل يعرض عن الثلاّبين، لا يسلك بغش، ولا يعرقل أخاه، لا يغار ولا يحسد، لا ينافس ولا يسر بسقوط الآخرين، لا يشجب من يهفو بل يرثي له ويعضده، لا يعرض عن أخيه في شدته بل يغيثه ويموت معه. من فيه المحبة يعمل بمشيئة الله وهو تلميذ حقيقي له، لأن سيدنا الصالح قال: «بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إذا كنتم تحبون بعضكم بعضًا». لا يعمل شيئًا لنفسه أبدًا، ولا يدّعي بملكية شيء بالإستقلال بل كل ماله مُشاع بين الجميع. لا يعتبر

لنا من الكأس المقدَّسة هما جسد المسيح ودمه، وأننا عندما نتناول هذين الجسد والدم نتحِّد مع المسيح ونصبح واحدًا معه ومع بعضنا: «كأس البركة التي نباركها أليست هي شركة دم المسيح. الخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح. فإننا نحن الكثيرين خبزٌ واحدٌ لأننا جميعنا نشترك في الخبز الواحد» (١ كور ١٠: ١٦و١٧) و«من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه» (يو ٦:٥٦). كذلك نؤمن أن هذا الخبز هو «خبز الله النازل من السماء الواهب حياةً للعالم» (يو ٦:٣٣). إنه خبز الحياة، الذي يأكل منه لن يجوع ولن يعطش إلى الأبد، و«إن أكل أحدٌ من هذا الخبز يحيا إلى الأبد... من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياةٌ أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير» (يو ٦: ٥١ و٥٤).

لكن إذا كنا سنستقبل الرب يسوع في داخلنا ألا يجب أن نهيئ أنفسنا لتكون أواني مقدَّسة لكي يستريح الله فينا؟ لذلك يطلب الكاهن في القداس الإلهي حلول الروح القدس «**علينا** وعلى القرابين الموضوعة». نحن بحاجة لأن نكون هياكل حقيقية للروح القدس ليحل الرب فينا. هذا في القداس الإلهي. لكن المؤمن يتهيأ للمناولة المقدَّسة قبل مجيئه إلى الكنيسة. يسعى لأن ينقّي نفسه من كل دنس جسدي وروحي، كما يسعى لأن يُهيء جسده لكي يستقبل ملك الكل.

لقد أوصى الرسول بولس: «ليمتحن الإنسان نفسه». إذًا لنمتحن أنفسنا إذا كنا مثقلين بالخطايا على مختلف أنواعها، وما إذا كنا نسعى للتوبة عن خطايانا والإقلاع عنها. لذلك فإن التوبة الحقيقية النابعة من قلب محبٍ للمسيح أمر ضروري وأساسي لقبول المناولة. والإعتراف في هذا المجال وسيلة مهمة تضع

الإنسان في الطريق الصحيح وتساعده على دخول الملكوت. ولنا حديث لاحق عن أهميّة الإعتراف. جيدٌ، بل وضروري، أن يتقدَّم المؤمن من فترة إلى أخرى إلى الإعتراف حين يشعر بشيء هام يعذّب ضميره. الكاهن يساعده أن يخرج من مرضه الروحي كما يساعد الطبيب المريض أن يتخلّص من مرضه الجسدي. لقد أوصانا الرب «إن قدّمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت ان لأخيك شيئًا عليك، فاترك هناك قربانك قدام المذبح واذهب أولاً اصطلح مع أخيك وحينئذٍ تعال وقدِّم قربانك» (متى ٦: ٢٣و٢٤). هذا يقودنا إلى القول ان المؤمن لكي يكون مستحقًا فعلاً الأسرار المقدَّسة، عليه السعي أن يحيا وصايا الرب يسوع في حياته اليومية دون مهادنة. ولذلك فإن التهيئة للمناولة من هذه الناحية هي تهيئة مستمرة وغير محصورة بوقت معين قبل المناولة.

بالإضافة إلى ذلك على المؤمن أن يتلو صلوات التهيئة للمناولة: المطالبسي، كما عليه أن يسعى لأن يشترك في حياة الكنيسة الليتورجية بقدر الإمكان دون تهاون. عليه أن يبتعد في الليلة التي تسبق المناولة عن كل جو مشتِّت للفكر والروح ومسبِّب للتجربة، كالسهرات الصاخبة وشرب المسكرات، والاستعاضة عنها بالمصالحة مع الإخوة وقراءة الكلمة الإلهية.

يبقى أخيرًا الحديث عن الصوم، ولا نتحدث في هذا الموضوع من باب الخطيئة أم غير الخطيئة. الإنسان روح وجسد. كما يُهيء المؤمن الروح لاستقبال الرب، كذلك يهيء الجسد، والصوم بخبرة الأباء القديسين خير مدرِّب للجسد ليصبح مستعدًا لاستقبال الرب فيه. أنت تنقطع عن الطعام لأنك لا تريد أن يدخل فمك شيءٌ قبل أن يدخل الرب أولاً، لأن

الرب هو أهم أمر حدث لك في حياتك. كيف تقول للرب عملياً أنك تحبه، إن لم تُظهر له عملياً لا نظريًا أنه الأهم؟

نود أن يتقدَّم المؤمنون باستمرار إلى المناولة المقدَّسة. المهم أن لا يصبح الأمر مجرد عادة. إنه جسد الرب ودمه. هل نعي هذا؟ المناولة ليست قطعة حلوى نأكلها كالأطفال لأنها تشعرنا بطعم لذيذ في أفواهنا. المهم أن تشعرنا بطعم لذيذ في جوفنا وفي قلبنا وروحنا. ومن لا يتهيأ للمناولة لن يشعر بالقيمة العظيمة لما يأخذ، بل يصير كأنه يبتاع قطعة حلوى في الدكان.

الإنتماء إلى يسوع

«المسيحي» هو كل من اقتبل سر المعمودية المقدَّسة فلبسَ المسيح. ولكن، هل كل من اعتمدَ هو مسيحي؟ المسيحية ليست دينًا أو طقوسًا أو عادات أو تقاليد... إنما هي انتماءٌ سماوي بعيد عن كل ما يشدُّنا نحو الأرض. المسيحية نورٌ يضيء ظلمةَ هذا العالم. المسيحية انعكاسٌ لحياة المسيح فينا. المسيحي الحق لا ينتمي إلى ذاته ولا إلى أحد، إنما للمسيح يسوع مخلصه.

لا فضل لمسيحي على غيره إلاّ باتباعه تعليم المسيح. فإنّ «كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبرهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت السموات. وأما بنو الملكوت فيُطرحون إلى الظلمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان» (متى ٨:١١-١٢). ابن الملكوت الحقيقي هو الذي يعمل إرادة الآب السماوي (راجع متى ٧: ٢١). وما إرادة الآب السماوي سوى السير على خُطى الناصري الحبيب، الذي أعلن لنا بحياته الأرضية حقيقة تكوين «الإنسان»، وكيفيَّة خلاصه أي تألهه.

منذ البدء خلق الله «الإنسان» على صورته ومثاله. وما الصورة الإلهية التي خُلقنا عليها سوى صورة الإبن الإلهي المتجسد، أي الرب يسوع المسيح. لهذا قال الرسول بولس إننا بالمعمودية نلبس المسيح، كما أن أعضاءنا هي أعضاء المسيح، وبالتالي الفكر الذي فينا يجب أن يكون فكر المسيح (راجع غلا ٣:٢٧، و١كور ٦:١٥ و٢:١٦). نحن بعد الآن لم نعد لذواتنا بل للمسيح.

كيف أحافظ على انتمائي للمسيح؟ من يدرس الكتاب الإلهي يلاحظ أن بدء عمل الرب المحبة. وما الوصايا سوى ترجمة للمحبة. حتى الوصية الأخيرة التي ذكرها يسوع لتلاميذه قبل آلامه هي المحبة. لأنك أيها الإنسان إذا بدأت عملاً لا ترغب فيه لن تنجح في إتمامه. أما إذا كنت تحب عملك مهما كان قاسيا فإنك تتجاوز كل صعوبة لتصل نحو مرادك. هكذا أيضًا العلاقة مع المسيح، فإن رغبت من كل قلبك أن تحيا حياته فإنك تتجاوز ذاتك مجاهدًا ومصليًا لتصل إلى ملء قامة المسيح. فالانتماء الحقيقي للرب هو السعي الدائم لعيش الفضيلة مهما كان ذلك قاسياً على المؤمن بسبب ظلمة هذا الدهر. والجدير ذكره أن الإنسان بطبعه يشعر بانتمائه العائلي، العرقي، الديني... ولكن ابن الإيمان انتماؤه سماوي. لقد سُمِّي عالمنا «الدنيا». فمن منّا يفضِّل الحياة الدنيا الزائلة على الملكوت؟ قال أحد القديسين: «إن متَّ قبل أن تموت، فلن تموتَ عندما تموت». لأن الموت الحقيقي هو العيش بعيدًا عن حياة النعمة. أمَّا الحياة الحقيقية فهي العيش تحت ظل نعمة الله. وبهذا نتحوَّل من أجساد ترابية إلى أجسادٍ روحانية، فيتمجَّد الله فينا ونحن في الله. وبهذا يكون انتماؤنا كاملاً في الرب فلا نُدعى عبيدًا إنما أبناءً أحراراً بالمسيح.

أحدًا غريبًا بل يحسب الجميع أهله وأنسباءه، لا يغتاظ ولا يتشامخ، لا يحتّد ولا يفرح بالظلم. لا يلبث في الكذب ولا يعتبر أحدًا عدوًا له سوى المحّال وحده، يصبر في المحن جميعًا ويتعطف بحلم. فمغبوط إذًا من فيه المحبة. إن المسافر بها إلى الله يعرف وليّه ويقتبله في أحضانه وسيُفتدى كالملائكة. سيملك مع المسيح العامل بالمحبة التي من أجلها جاء الإله الكلمة إلى الأرض وبها فتح لنا الفردوس وأعطى الجميع أن يرتقوا إلى السماء. لقد كنا أعداء لله فصالحنا بها. فصوابًا قلنا: «إن المحبة هي الله، ومن يثبت في المحبة يثبت في الله والله فيه».

المبتعد عن المحبة هو شقي ومشؤوم الحظ يقضي أيامه كالذي في حلم. فمن لا ينوح على ذلك الإنسان البعيد من الله والفاقد النور والمتصرف في الظلمة؟ لأن من ليست فيه محبة الله هو عدوه. وصدق القائل: «كل من يبغض أخاه فهو قاتل». في الظلمة يسلك وهو السريع السقوط في كل خطيئة بما انه يغضب بحدة ويغتاظ فورًا ويتوقد غضبًا لحينه. فهو يفرح بظلم الآخرين ولا يتألم مع من يهفو ولا يمد يده للواقع...

القديس افرام السرياني